تاريخ الإرسال: 2017/09/02 تاريخ القبول: 2019/01/01 تاريخ النشر: 2018/12/30

رُؤْيَا الملِكِ وتَأْوِيلُهَا في سُورَةِ يُوسُفَ
دِراسَةٌ في دَلَالَاتِ التَّراكِيبِ القُرْآنِية.

د. مصطفى أحمد قنبر

وزارة التعليم والتعليم العالي ـ دولة قطر

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على التراكيب القرآنية التي عبرت عن رؤيا الملك وتأويل نبي الله يوسف عليه السلام لها في القرآن الكريم، وكيف حملت هذه التراكيب دلالات للمتلقي جسَّدت عناصر الرؤيا ورسمت خطة دقيقة للإنقاذ من خلال التأويل اليوسفي لها.

الكلمات المفتاحية:

الرؤيا؛ التأويل؛ التراكيب القرآنية؛ الدلالات.

توطئة:

حفلت سورة يوسف بعرض مشاهد من قصة نبي الله يوسف عليه السلام من طفولته حتى صار رجلا نافذًا من رجالات الدولة في عصره. ومن هذه المشاهد التي كان لها دور في توجيه الأحداث وتغيير مسارات الشخصيات الرؤى التي تعلقت بأحداث وشخصيات رئيسية وثانوية في قصة هذا النبي المكرم عليه السلام.ومن تلك الرؤى التي كان لها أثر كبير فيتغير مسارات الشخصيات خاصة الشخصية الرئيسية (نبي الله يوسف عليه السلام) في هذه القصة ـ رؤيا الملك، وتأويل نبي الله لها وما ترتب على ذلك من توليه منصبًا نافذًا في دولة هذا الملك.وقد تناولت الآية الثالثةوالأربعون والسادسة والأربعون مضمون هذه

الرؤيا، وجاء تأويلها من قبل نبي الله يوسف عليه السلام في الآيات السابعة والأربعين والثامنة والأربعين والتاسعة والأربعين.

قال تعالى: "وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ(43) قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ(44) وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (45) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ(46) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ(47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)" سورة يوسف.

وفي هذا البحث نحاول الوقوف على دلالات التراكيب القرآنية فيما قصَّتهُالسورة عن رؤيا هذا الملك، وتأويل نبي الله يوسف لها وذلك بالوقوف على ما عرض له السادة المفسرون في القديم وفي الحديث، مع الإفادة من معطيات الدراسات اللغوية والبيانية الحديثة وما تمثله من إضافات لا تتعارض مع روح النص القرآني المعجز. وحري بنا ـ قبل معالجة ذلك ـ أن نعرض للظروف المختلفة المحيطة بالحدث، ودور الشخصيات فيه، حتى يمكن فهم طبيعة كل من المتكلم والمتلقي وما تتشحبه تراكيب هذا النص الشريف من دلالات.

الظروف المحيطة بالرؤيا وتأويلها:

أُدْخِلَ نبي الله يوسف عليه السلام السجن ظلمًا؛ تنكيلا به إذ ترفَّع عما دعته إليه امرأة العزيز، وفي هذا السجن بدا لمن حوله صلاحه وإحسانه، وقدرته التي أوتيها من ربه جلا وعلا على تعبير الرؤى. وكان المحيط الخارجي للمجتمع المصري الذي دارت فيه معظم أحداث القصة، أشبهَ حالا بأوضاع مجتمع

الجاهلية الذي واجهه النبي محمد ﷺ، فقد كانت فيه كلمات الدين تسمع فهم يحلفون بالله ويتسمَّون بأسماء تنسب له مثل عبد الله، ويعظمون بيته ويحجونه. وفي هذا المجتمع أيضًا كان الناس يدينون بالطاعة لحاكم وصف بالملك دون لقب الفرعون الذي تردد كثيرًا في قصة نبي الله موسى عليه السلام، وهذا يؤيدأن الحكم في هذه الحقبة كان للرعاة الهكسوس الذين سيطروا على الجزء الشمالي من مصر ولم يكن للأسر الفرعونية.

وبدا من خلال القصة أن الملك كان يعاونه في الحكم رئيس وزراء أو كبير وزراءيسمى العزيز، وأنه كان محاطًا بالكهنة الذين كان لهم وضعًا ومركزًا عند الملك، فهم من يفزع إليهم في المهمات والملمات، ويستشيرهم فيما يطرأ عليه أو على دولته من أمور، كما يبدو أن هذا الملك كان يعزو كثيرًا من الأمور إلى التفسيرات الغيبية الغامضة.([1])

المبحث الأول: التراكيب القرآنية في رؤيا الملك:

عبرت التراكيب القرآنية عن رؤيا الملك في مشهدين، سبقهما تأكيد من الرائي القاص على الوعي الكامل بعناصر ما رأي، والنقل الوافي لكل ما جرى في الرؤي، والمشهدان هما:

الأول: كان عنصر الحيوان الحاضر فيه وهو للبقر بصفتين: السمان والعجاف، وكانت العلاقة الفاعلة بينهما قضاء الأضعف (العجاف) على الأقوى (السمان) على غير نواميس الحياة.

الثاني: كان عنصر النبات الحاضر فيه وهوفي سنبله في مرحلتيه الخضر واليبس، ولم تصرح الرؤية بشيء عن ماهية العلاقة بين نوعي السنبلات على نحو ما جاء في المشهد الأول.

وقد تصدرت التراكيب القرآنية التي عبرت عن رؤيا الملك التركيب الاسمي المؤكدبالأداة (إنَّ) التي اتصل بها ضمير المتكلم (ي)، وقد دخلت على

التركيب لتحدث أثرين: الأول: لفظي إعرابي وهو نصب المبتدأ وجعله اسمًا لها، والإبقاء على الخبر مرفوعًا وجعله خبرًا لها. أما الثاني: فهو دلالي أو بياني ويتمثل في تقوية الكلام لدى المخاطَب فيصير أكثر تقبلاً له واقتناعًا به في مواجهة ما قد يساوره من شكوك أو ما يطرأ عليه من تردد، أو "لإزالة ما علق بنفس المخاطَب من شكوك وإماطة ما خالجه من شبهات"[2] تجاه مضمون الكلام.

وقد أولى علماء البلاغة العربية جل عنايتهم بهذه الناحية في مباحث التوكيد، وربطوا بين حال المخاطب والكلام الموجه إليه: فيرون أن الكلام يرسل متجردًا من التوكيد في جانب المخاطب خالي الذهن، ولا يلجأ المخاطِب إلى التوكيد إلا بعد أن يَثبت له تردد المخاطَب أو شكوكه في مضمون الكلام، وفي مرحلة تالية إنكاره له، عند هذا المقام يلجأ المخاطِب إلى تقويه كلامه بأكثر من أداة توكيدية. "ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيًا والثاني طلبيًا والثالث إنكاريًا، وإخراج الكلام على هذه الوجوه إخراجًا على مقتضى الظاهر، وكثيرًا ما يخرج على خلافه فينزل غير السائل منزلة السائل إذا قُدِّم إليه ما يلوح له بحكم الخبر فيستشرف له استشراف المتردد الطالب .... وينزل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شيء من أمارات الإنكار." [3]

أما عن علة هذا التوكيد وفي ذلكم الموضع ـ الذي ربما لم يكن المقام هنا في حاجة إليه ـ فإنَّنا لو رجعنا قليلا للمتكلم وللمقام الذي أُحيط به خطابه لتبيَّن لنا أن الكلام لو خلا من التوكيد ما تطرَّق إلى المتلقين أي نوع من الريبة والشك في حدوثه. إذ المتكلم هو الملك الذي يعرف ما يقول؟ ومتى يقول؟ وليس شخصًا عاديًا قد يهذي بالكلام أو يخلط الجد بالهزل. والمتلقون صفوة رجاله وجلسائه من رجالات الحكم والسياسة والفكر... فكل ما يخرج من لسانه محل اهتمام وعناية ودراسة.

لكنَّ التوكيد هنا قصد إليه المتكلم حين استشعر الغرابة فيما سيحكيه عن تلك الرؤية حيث الجمع بين المتناقضات في مشاهدها، والتشتت الذييصيب المحكي لهم جراء الضبابية وعدم اكتمال المشاهد. أو أن الأمر كله في نظر المحكي لهم قد لا يعدو أن يكون مجرد تهيئات لا ترقى إلى الرؤية المنامية، وهذا ما دفع بالمتلقين إلى وصف ما حُكي لهم بأنه (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ). ولم يكن ذلك الوصف من المتلقين لحَكْي الملك خروجًا عن مألوف أدب الخطاب مع الملوك، فليس الملك إلا بشرًا يجري عليه ما يجري على كل البشر في النوم من الرؤى والأحلام. أو لنِقَلْ إن الملك قد منح جلسائه هؤلاء من المكانة والحظوة ما يجعلهم يخاطبونه في مثل هذه الأمور بالصراحة دون تردد أو وَجَل، وتفسير المجريات تفسيرًا واقعيًا ولو كان ذلك على عكس ما يرجوه هذا الملك.

وفي قوله جلَّ وعلا حكاية عن الملك: "إِنِّي أَرَى"، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ رَأَى فِي مَنَامِهِ وَلَا فِي غَيْرِهِ، فهذا لِتَعَارُفِ الْعَرَبِ بَيْنَهَا فِي كَلَامِهَا إِذَا قَالَ الْقَائِلُ مِنْهُمْ: أَرَى أَنِّي أَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا أَنَّهُ خَبَرٌ عَنْ رُؤْيَتِهِ ذَلِكَ فِي مَنَامِهِ، وَإِنْ لَمْ يَذْكُرِ النَّوْمَ. وَأَخْرَجَ الْخَبَرَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَلَى مَا قَدْ جَرَى بِهِ اسْتِعْمَالُ الْعَرَبِ.[4]

أما عن التعبيرعن فعل الرؤية بالمضارع (أَرَى) دون الماضي (رَأَيْتُ) فذلك حكاية حال،([5]) وعلل ابن عطية لذلك بقوله: "وحكيت حال ماضية فـ (أَرى) وهو مستقبل من حيث يستقبل النظر في الرؤيا."([6]) ولم يزد أبو الفرج ابن الجوزي على أن قال بجواز التعبير بالمضارع عن الماضي في لغة العرب.([7]) و في التفاتة رائعة يربط الخطيب الشربينيفي تفسيره (السراج المنير) بين التعبير اللغوي والحالة النفسية التي ألمَّت بصاحب الرؤية (الملك) حيث عبر بالمضارع دون الماضي حكاية للحال؛ لشدّة ما هَالَهُ من ذلك.([8]) ويرى الشوكاني أنه حين قال: (إِنِّي أَرَى) أن المعنى: " إِنِّي رَأَيْتُ، وَلَكِنَّهُ عَبَّرَ بِالْمُضَارِعِ لِاسْتِحْضَارِ الصُّورَةِ"[9] ولم يبتعد كثيرًا صاحب تفسير المنار حين قال أن التعبير بالمضارع

(أَرَى) يعني رأيت فِيمَا يَرَى النَّائِمُ رُؤْيَا جَلِيَّةً مَاثِلَةً أَمَامِي كَأَنِّي أَرَاهَا.([10]) ويوافقه في هذا الشيخ المراغي في تفسيره.([11])

ولا مُشَاحَّة في قبول هذه التعليلات جميعها خاصة إذا وضعت بعضها بجانب بعض، حيث إنها لاتتعارض مع السياق والمقام الذي وردت فيه، وإذا وضعت أمام المتدبر لهذا التركيب في سياقه ومقامه فقد وقف على موضع من مواضع الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

التراكيب المعبرة عن المشهد الأول:

كان العنصرُ الحيوانيُّ البقرُهو الحاضر الوحيد في هذا المشهد، وكان حاضرًا بصفتين متعارضتين: السِّمَنِ والعَجَفِ، وآكل ومأكول. غير أن صفة أخرى جمعت بينهما هي عدد كل نوع منهن وهو سبع. ويمكن إطلاق صفة التغير أوالحركة على السمة الخاصة بالنوعين (آكل X مأكول)، وإطلاق صفة الثبات على السمتين الخاصتين بالمظهر وهما (السمان X العجاف)، وكذا على السمةالخاصة بالعدد فهما(سبع) في النوعين.

لقد كانتالرؤيا عجيبةً حقًا هالت الملك وَعَرَفَ أَنَّهَا رُؤْيَا وَاقِعَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ ثُمَّ خَرَجَ عَقِبَهُنَّ سَبْعُ بَقَرَاتٍ عِجَافٌ فِي غَايَةِ الْهُزَالِ، فَابْتَلَعَتِ الْعِجَافُ السِّمَانَ فَدَخَلْنَ فِي بُطُونِهِنَّ، فلم يرَ منهن شيئا وَلَمْ يَتَبَيَّنْ عَلَى الْعِجَافِ مِنْهَا شَيْءٌ.([12]) ويقف العلامة الرازي في تفسيره عند مكمن العجب في الرؤيا وعلة الهول التي أصابت هذا الملك مرجعًا ذلك إلى ما رآه من: " أَنَّ النَّاقِصَ الضَّعِيفَ اسْتَوْلَى عَلَى الْكَامِلِ الْقَوِيِّ فَشَهِدَتْ فِطْرَتُهُ بِأَنَّ هَذَا لَيْسَ بِجَيِّدٍ، وَأَنَّهُ مُنْذِرٌ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ، إِلَّا أَنَّهُ مَا عَرَفَ كَيْفِيَّةَ الْحَالِ فِيهِ. وَالشَّيْءُ إِذَا صَارَ مَعْلُومًا مِنْ وَجْهٍ وَبَقِيَ مَجْهُولًا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ؛ عَظُمَ تَشَوُّفُ النَّاسِ إِلَى تَكْمِيلِ تِلْكَ الْمَعْرِفَةِ، وَقَوِيَتِ الرَّغْبَةُ فِي إِتْمَامِ النَّاقِصِ لَا سِيَّمَا

إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ عَظِيمَ الشَّأْنِ وَاسِعَ الْمَمْلَكَةِ، وَكَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ دَالًّا عَلَى الشَّرِّ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ.([13])

ولما كانت المشاهد التي بدت بها عناصر الرؤيا داعيةً إلى العجب، وقد بثت الرعب في نفس الملك لاتصالها به وبمملكته؛ فقد وقف السادة المفسرون وأهل اللغة عند المفردات التي شكلت معالم هذه المشاهد. فأما عن (سِمَانٍ) صفةٌ لـ (بَقَراتٍ)، فهو جمعُ سمينةٍ، ويجمع «سَمِين» أيضاً عليه يقال: رجالٌ سمانٌ ونساءُ سمان؛ كما يقال: رجالُ كرامٌ ونساءٌ كرامٌ، و(السِّمن): مصدر سَمِنَ يَسْمَنُ فهو سَمِينٌ، والسمن زيادة البدن من الشحم واللحم.([14]) وأما العجاف من البقر فهي التي قد بلغت في الهُزَالِ الغايةَ والنهايَةَ.([15]) وعِجافٌ جَمْعُ عَجْفَاءَ. وَالْقِيَاسُ فِي جَمْعِ عَجْفَاءَ عُجْفٌ لَكِنَّهُ صِيغَ هُنَا بِوَزْنِ فِعَالٍ لِأَجْلِ الْمُزَاوَجَةِ لِمُقَارِنِهِ وَهُوَ سِمانٍ.([16])وَمِنْ دَأْبِ العرب في كلامهم حَمْلُ النَّظِيرِ عَلَى النَّظِيرِ، والنقيضعلى النقيض.([17])

وقد وقف صاحب الكشاف عند الصفة في هذا التركيب (سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ) وعلل لكون الموصوف (بَقَرَاتٍ) وليس (سَبْعَ) قائلا عن (سِمَانٍ): إذا أوقعتها صفة لبقرات، فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهي السمان منهنّ لا بجنسهنّ. ولووصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بجنس البقرات لا بنوع منها، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن.([18]) وتابعه في ذلك البيضاوي وأبو حيان وابن عادل والنيسابوري([19])

وقد عبرَّ عن فعل الأكل بالمضارع استحضارًا للصورة، وكأن الحدث ـ لغرابته وشدة هوله ـ مازال ماثلا يمر أمام عينيه. وقد توسط الفعل(يَأْكُلُهُنَّ) بين عنصري المشهد الأول في هذه الرؤيا، وكان العنصر الأول للبقر السمان ثم كان العنصر الثاني للبقر العجاف. وفي غير السياق القرآني كان بإمكان المتكلم أن يقدم العنصر الثاني (سَبْعٌ عِجَافٌ)، غير أنَّ مجيء التركيب القرآني

على ما هو عليه جَعَلَ المفعول به متقدما وجوبا على الفاعل (يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ)، وهذا التقديم آكد لإثبات وقوع الفعل عليهن، ذلك أن في هذا التقديم نوع من التوطئة والإعلام، فدخلَ على القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقَبِلَهُ قبولَ المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأتقى للشُّبهة، وأَمنعُ للشكَّ، وأدخلُ في التَّحقيق،(20) خاصة إن كان ما يحمله الخبر هنا يثير العجب والغرابة. ومن هنا يمكن القول إن التركيب كله في محل نصب مفعولا به للفعل (أَرَى).

وفي قوله جل وعلا(سَبْعٌ عِجَافٌ) يري الزمخشري أنه لم يصرح بالموصوف لوقوع العلم بأن المراد البقرات، وترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل، وقد وقع الاستغناء بقولك سَبْعٌ عِجافٌ عما يُقترح من التمييز بالوصف.([21]) ويرى البيضاوي أن الوصف بالعجاف للسبع الثاني (سَبْعٌ عِجَافٌ) إنما جاء لتعذر التمييز بها مجرداً عن الموصوف فإنه لبيان الجنس.[22] والبقرات كناية عن السنين، والسمان كناية عن الخصب والسعة، يأكلهن على حقيقة الأكل لا غير. وكذلك (سَبْعٌ عِجَافٌ) السبع: هو سبع، والعجاف: كناية عن الشدة والجدب.([23])

التراكيب المعبرة عن المشهد الثاني:

أما المشهد الثاني فقد عبرت عنه التراكيب الآتية في قوله تعالى: " وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ"، حيث كان العنصر النباتي هو الحاضر الوحيد فيه، وكان بصفتين متقابلتين كما في المشهد الأول وهما (خُضْرٍ X يَابِسَاتٍ) والسمة التي جمعت بينهما هي العدد فكلاهما (سَبْعَ)، كما صرح في التركيب الأول، وكما فهم من التركيب الثاني(أُخَرَ يَابِسَاتٍ)، وقد جاءت عناصر هذا المشهد كما هي عناصر المشهد الأول إلا في التصريح ببيان العلاقة التي بين

عنصري المشهد. وقد استغنى عن بيان حالها ـ كما يقول الخطيب الشربيني ـ بما نص من حال البقرات.([24])

يقول البغوي: "ثُمَّ رَأَى سَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ قَدِ انْعَقَدَ حَبُّهُا وَسَبْعًا أُخْرَى يَابِسَاتٍ قَدِ اسْتُحْصِدَتْ، فَالْتَوَتِ الْيَابِسَاتُ عَلَى الْخُضْرِ حَتَّى غَلَبْنَ عَلَيْهَا وَلَمْ يَبْقَ مِنْ خُضْرَتِهَا شَيْءٌ."([25]) "وسبع سنبلات: هن عَين السنبلات، وخضر: هن كناية عما يحصد، ويابسات: كناية عما لا يكون فيه ما يحصد."([26])

وفي التفاته رائعة يستنتج العلامة الزمخشري أن المسكوت عنه في حكي الملك في المشهد الثاني قد صار معلومًا من مفردات المشهد الأول، فيقول متسائلا: "هل في الآية دليل على أنّ السنبلات اليابسة كانت سبعًا كالخضر؟ قلت: الكلام مبنى على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع، ويكون قوله وَأُخَرَ يابِساتٍ بمعنى وسبعًا أخر. فإن قلت: هل يجوز أن يعطف قوله وَأُخَرَ يابِساتٍ على سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ فيكون مجرور المحل؟ قلت: يؤدى إلى تدافع، وهو أن عطفها على سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ يقتضى أن تدخل في حكمها فتكون معها مميزاً للسبع المذكورة، ولفظ الأخر يقتضى أن تكون غير السبع بيانه: أنك تقول: عندي سبعة رجال قيام وقعود، بالجرّ، فيصح؛ لأنك ميزت السبعة برجال موصوفين بالقيام والقعود، على أنّ بعضهم قيام وبعضهم قعود، فلو قلت: عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود، تدافع ففسد."([27])

ولم تَقِلْ عناصر المشهد الثاني في تحولاتها غرابة عن المشهد الأول، وشكلا معًا رؤيا لم يكن باستطاعة الملك أن يهدأ أو يتريث إزاءها. ويبدو أن مشاهد الرؤيا بدت معقدةً بحيث صعب على الملك تفسيرها، أو أن مشاهدها أوحت إليه بتأويلات أفزعته تتعلق بمصيره ومصير مملكته... وكلا النتيجتين

جعلتا الملك يفزع إلى خلصائه من ذوي العقول التي تُعمِل التدبر في كل ما تسمع.

وقد كان في قَص الملك على جلسائه فيما حكاه القرآن الكريم نوع من التكثيف وبعد عن سرد التفاصيل في المشاهد، بما لايخل بوصول المضمون إلى المتلقين، وإدراكهم لمشهدي الرؤيا بكل أبعادهما. خاصة إذا علمنا مَنْ هم المحكي لهم في هذا المقام الذين وَجَّه لهم الملك خطابه قائلا: (يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ)، إذ ذكرت كتب التفاسير نعوتًا كثيرة لهؤلاء الملأ منها: الذين يُرجع إليهم في الأمور ويقتدى برأيهم، الأشراف النبلاء الذين تملأ العيون مناظرهم والقلوب مآثرهم، الأعيان من العلماء والحكماء، أَشْرَافُ دَوْلَتِهِ وَأَعْيَانُهُمُ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ عِنْدَ الْمَلِكِ، السَّحَرَةَ وَالْكَهَنَةَ وَالْعَافَّةَ وَهُمْ: الْقَافَّةُ وَالْحَاحِزَةُ وَهُمُ الَّذِينَ يَزْجُرُونَ الطَّيْرَ، العرافين، أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس، ويملأون العيون.(28)

تلك هي الرؤيا بمشهديها، وهذا هو صاحب الرؤيا وكيف تلقى ما رأه على المستوى النفسي من خلال ما قصه على متلقيه عبر التراكيب التي عبرت عن ذلك. فكيف كان التأويل الصحيح للرؤيا من جانب نبي الله يوسف عليه السلام؟ وما نوع التراكيب التي حشدت لهذا الغرض.

المبحث الثاني: تأويل نبي الله يوسف لرؤيا الملك:

شغلت رؤيا الملك الملأَ من جلسائه، وكان جوابهم الذي تلقاه الملك منهم غير مقنع. إذ قالوا: " أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ "، وحمل هذا الجواب من الملأ قضيتين: الأولى: تتعلق بوصف ما رآه الملك، والثانية تتعلق بموقفهم إزاء ما يروى لهم مما يراه النائم.

أما عن القضية الأولى فقد وَصَفَ الملأ ما قصه الملك عليهم بأنها ليست برؤيا بَيِّنة، إنما هي أخاليط أحلام كاذبة.([29]) وأمَّا عن القضية الثانية: فهي نفي علمهم المطلق بتأويل هذا النوع من الرؤى (وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ). لكنَّ ساقي الملك أخبرهم بأن لديه من يمكنه تأويل رؤيا الملك وهو نبي الله يوسف عليه السلام،([30]) وإذ ذاك عرضت الرؤيا على نبي الله فكان تأويلها: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ(47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ(48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)" سورة يوسف.

ومن يقف على المضمون الذي جاء في هذا التأويل النبوي، يلحظ أن نبي الله يوسف عليه السلام " لايفسر الرؤيا وحسب ولكن يرسم خطة عملية تستغرق القطر كله."[31] لقد " قَالَ يُوسُفُ مُبَيِّنًا لِلْمَلَأِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَمَلُهُ، لِتَلَافِي مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الرُّؤْيَا مِنَ الْخَطَرِ عَلَى الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ، قَبْلَ وُقُوعِ تَأْوِيلِهَا الَّذِي بَيَّنَهُ فِي سِيَاقِ هَذَا التَّدْبِيرِ الْعَمَلِيِّ، وَهَذَا ضَرْبٌ مِنْ بَلَاغَةِ الْأُسْلُوبِ وَالْإِيجَازِ، وَلَا تَجِدُ لَهُ ضَرِيبًا فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ"[32]

كما يلاحظ أن مفردات هذا التأويل ليست بعيدة عن مفردات الرؤيا، فكلا المفردات تنتمي إلى حقل دلالي واحد، وهذا ما أعطى هذا التأويل قبولا ودون مناقشة من الملك وملئه، بل ووضعت لتلافي مخاطر هذه الرؤيا خطةٌ من جانب نبي الله يوسف لم يتردد الملك في تنفيذها. وقد جاءت هذه الخطة العملية اليوسفية في ثلاث مراحل:

ـ المرحلة الأولي: ومدتها سبع سنوات، وهي مرحلة الزراعة والحصاد والادخار.

ـالمرحلة الثانية: ومدتها سبع سنوات،وهي مرحلة السنوات العجاف،حيث الاعتماد الأساسعلى ما أُدخر من قبل.

ـ المرحلة الثالثة: ومدتها عام حيث يأتي الغوث، وتعود الحياة إلى سابق عهدها.([33])

التراكيب المعبرة عن المرحلة الأولي:

وُظف في النظم القرآني تركيبان لغويان للتعبيرعن المرحلة الأولي، أو لِنقلْ: مرحلة الاستعداد والتعبئة لمواجه المخاطر المقبلة، تلك التي رسمها نبي الله تأويلا لرؤيا الملك. التركيب الأول: فعلي هو قوله تعالي: " تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا"، و والتركيب الثاني: شرطي: وهو قوله عز وجل: " فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ".

أولا: التركيب الفعلي:

جاء التركيب الأول فعليًا وقد حُدِّدَ فيه نوع الفعل، وعُيِّن المسند إليه، وحدد الزمن، والكيفية التي يحدث بها. وقد استوقف هذا التركيب السادة المفسرين في كونه ينزع إلى الأمر وإن كان الأظهر منه أنه خبر.([34]) غير أنَّ بعضًا من هؤلاء رأوا أن الأسلوب خبر بمعنى الأمر،([35]) ويعلل لذلك العلامة الزمخشري بقوله: " تَزْرَعُونَ خبر في معنى الأمر، كقوله: تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ، وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للمبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه. والدليل على كونه في معنى الأمر قوله فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ."([36]) وقد تابعه في ذلك: الرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبوحيان، والنيسابوري، ورشيد رضا([37])

وقد كان لتخير عناصر هذا التركيب أثرها في وضوح المعاني التي أراد نبي الله إيصالها إلي المتلقين من أول مسؤول وهو الملك إلى آخر من يعنيه هذا الأمر أو يناط به التكليف. لقد أسهم كل عنصر لغوي في مكانه من التركيبـ بما يحمله من دلالات ـ في إبراز دوره المحدد في الخطة التي رسمها نبي الله يوسف عليه السلام.

ففضلا عن التعبير عن الآنية والمستقبلية التي هي حدًّا الفعل المضارع (تَزْرَعُونَ) مع التجدد والاستمرار ومع تلكم الدلالات التي توجب البدء بالعمل فورًا دون تردد أو كسل ـ لم يكن الأمر متروكًا دون حد زمني، وإلا كان ضربًا من العبث إذ الضبابية تخيم على المدى الزمني للمشروع، حيث عُلم الحد المكاني وهي الأراضي الزراعية في مصر، حُدِّد المدى الزمني للتنفيذ. وإذا كان الفعل قد أسند إلى جماعة المخاطبين (الملك ومن أراد معرفة تأويل الرؤيا من الملأ المحيطين بالملك)، وهم لايقومون بأعمال الزراعة مباشرة بل يوجهون فلاحي القطر بذلك، فإن هذا الإسناد يعبرعن المسؤولية المناطة بهؤلاء جميعًا إذ الجميع مُستهدَف فالخطة هنا قومية عامة. وإذا كان جمع من المفسرين قد قال بالأمر في صورة الخبر كما سبق بيانه، فإن التركيب إن تصدره الأمر(اِزْرِعُوا) قد يفهم منه الطلب مطلقًا دونما تحديد لبدايته، ناهيك عن افتقاد هذا الفعل (الأمر) لدلالات التجدد والاستمرار. ولم يكن التحديد الزمني بـ(سَبْعَ سِنِينَ) خارجًا عن مفردات رؤيا الملك، إذ كان العنصر الحيواني و النباتي سبعًا، فمن مفردات الرؤيا يكون التأويل. وهذا ما يجعل التأويل مقبولا عند من يطلب تأويل الرؤى أو من تُقص عليه.

وقد تكفل المصدر المنصوب (دَأَبًا) ببيان الكيفية التي تَسِم هذا العمل، وقد كان ذلك مثار نظر كثير من اللغويين والمفسرين: فها هو الطبري يذكر أن الدأب العادة،([38]) ولم يبتعد الزجاج كثيرًا حين قال: " أي تَدْأبُونَ دَأباً، ودَلَّ على تَدْأبُونَ (تَزْرَعُونَ). والدَّأبُ الملازمَةُ للشيء والعادةُ "([39]) وبه قال الثعالبي في تفسيره ([40]) لكنَّ الماوردي يرى أن هذا المصدر في التركيب " فيه وجهان: أحدهما: يعني تباعًا متوالية. الثاني: يعني العادة المألوفة في الزراعة."([41]) وقال بالوجه الثاني السمعاني في تفسيره.([42]) وزاد البغوي: بجد واجتهاد.([43]) وقد ذكر الخازن في تفسيره ما قال به السمعاني والبغوي.([44])

وقد وسَّع الزمخشري دائرة النقاش قليلا حين تعرض للموقع الإعرابي لهذا المصدر، لكنه لم يقف على معنى هذا ولا دلالته، فقال: " دَأَباً بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدرا: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أى دائبين: إمّا على تدأبون دأباً، وإمّا على إيقاع المصدر حالا، بمعنى: ذوى دأب "([45]) ولعل هذا ما دفع بصاحب المحرر الوجيز إلى أن يوسع من دائرة النقاش حول هذه المسألة وعزز ما قال به بشواهد من كلام العرب: "ودَأَباً معناه: ملازمة لعادتكم في الزراعة، ومنه قول امرئ القيس: [الطويل] كدأبك من أم الحويرث قبلها.. البيت، وقرأ جمهور السبعة «دأبا» بإسكان الهمزة، وقرأ عاصم وحده «دأبا» بفتح الهمزة، وأبو عمرو يسهل الهمزة عند درج القراءة، وهما مثل: نَهَر ونَهْر. والناصب لقوله: (دَأَباً) تَزْرَعُونَ، عند أبي العباس المبرد، إذ في قوله تَزْرَعُونَ تدأبون، وهي عنده مثل قولهم: قعد القرفصاء، واشتمل الصماء. وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل مضمر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر، كأنه قال: تزرعون تدأبون دأبا."([46]) وبهذا قال أبو حيان.([47])

وعلى خطى ابن عطية سار أبو الفرج ابن الجوزي، لكنه جمع في المعنى بين الوجهين الذي قال بهما الماوردي فقال: "ومعنى (دأَبًا) أي: زراعة متوالية على عادتكم، " ووافقه القرطبي. ([48]) لكن الرازي أخذ بالمعنى الأول فقط وهو الزراعة المتوالية في هذه السنين. وكذا الشوكاني([49]) وممن سار على نهج الزمخشري وأضاف إليه العلامة البيضاوي في تفسيره (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) حين قال: " تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً أي على عادتكم المستمرة وانتصابه على الحال بمعنى دائبين، أو المصدر بإضمار فعله أي تدأبون دأبًا وتكون الجملة حالاً. وقرأ حفص دَأَبًا بفتح الهمزة وكلاهما مصدر دأب في العمل."([50]) وبهذا المعنى قال ابن عجيبة.([51]) وذكره أيضا ابن عاشور في تفسيره.([52])

ويمكن القول إن نبي الله طلب منهم لتلافي الأخطار المحدقة بالبلاد أن يقوموا بتوظيف كل إمكانياتهم في زراعة كل ما لديهم من أراضٍ صالحة لذلك، وليكن ذلك هو المشروع الاستراتيجي الرئيس للبلاد يشارك فيه الجميع، وهذا العمل ليس بجديد أو شاق عليهم فهو من عاداتهم، إلا أنه يحتاج إلى المزيد من الجد والاجتهاد مع العمل المستمر والمتواصل وذلك في مدة زمنية قدرها سبع سنوات. هذا هو المضمون الذي يمكن أن يستشف من التركيب الفعلي الأول وهو قول تعالى على لسان نبي الله يوسف عليه السلام: " تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ".

وقد قارن القشيري بين المقام في تأويل نبي الله يوسف لرؤيا الملك، والمقام في تأويل رؤيا الفتيين صاحبيه في السجن، ولمَ أثر دعوة الفتيين إلى الإسلام بينمالم يذكر أمر الدعوة عند تأويل رؤيا الملك، وكلا طالبي التأويل كافران؟ فأرجع ذلك إلى مراعاة المقام في حال المتلقي(المدعو)، وذلك على اعتبارين: الأول: أن المتلقي المباشر هو السائل الذي جاء يسأل نبي الله عن تأويل رؤيا الملك وهو يقوم بوظيفة ساقي الملك الذي دعاه في المرة الأولى. فإمّا أنه قد قبل في المرة الأولى، وإمّا أنه لم يقبل فيئس منه وأهمله. وأما الاعتبار الآخر: فهو أن المتلقي كان صاحبَ الرؤيا ملك مصر، ولم يكن الملك حال تأويل يوسف حاضرًا، والوعظ والدعاء لا يكونان إلا في المشاهدة دون المغايبة.كما أرجع هذه المراعاة إلى سبب آخر في جانب الطرفين هو أنه قد تفرّس في الفتيين قبول التوحيد فإنّ الشباب ألين قلبًا، أمّا في هذا الموضع فقد كان الملك أصلب قلبًا وأفظّ جانبا فلذلك لم يَدْعُه إلى التوحيد لما تفرّس فيه من الغلظة.([53]).

ثانيًا: التركيب الشرطي:

أما عن التركيب الثاني فقد جاء ليعبر عن كيفية التعامل من المنتج الزراعي ليبقي صالحًا للاستهلاك مدة أطول مما ألفته دولة الملك، إنه ما يسمى بـ (التخزين أو الحفظ طويل الأمد).

عُبِّر عن ذلك بتركيب شرطيّ تصدرتْهُ أداة الشرط الجازمة (ما) التي شغلت موقع المفعول به للفعل الماضي الذي جاء بعدها، هذا التركيب الشرطي يتناول ثلاثًا من مراحل ما بعد الزراعة. تعد في غاية الأهمية إذ هي تعبر عن كيفية التعامل مع الزرع عند نضجه وقد تضمنتها عناصر التركيب بقليل من الألفاظ تتشح بكثير من الدلالات، إنها مرحلة: الحصاد، فالادخار، ثم مرحلة الاستهلاك. قال تعالى:"فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ".

وقد ربطت أداة الشرط (مَا) بين جملتي فعل الشرط (حَصَدْتُمْ) وبين جملة جواب الشرط (فَذَرُوهُ..)، فمتى بلغ الزرع حد النضج حان وقت حصاده، وقد أسند الفعل إلى جماعة المخاطبين الذين وجه إليهم الأمر بالزراعة في التركيب السابق؛ إذ هم أكثر الناس معرفة بحلول موسم الحصاد، وعلى الفور يأتي جواب الشرط مبينا كيف يتم التعامل مع هذا المنتج، حيث المرحلة الثالثة من المشروع وهي ما يسمي بالتخزين أو الادخار وقد عبرت عنها جملة جواب الشرط التي أُقتُرِنت بالفاء تأكيدًا على علاقة الربط والإلزام بين فعل الشرط وجوابه. ناهيك عما توحي به الفاء هنا من البدء بالتنفيذ الفوري وبلا تردد في عمليات التخزين أو الادخار على النحو الذي أرشد إليه نبي الله يوسف عليه السلام مؤول تلك الرؤيا.

قال ابن عطية: " هي إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت والمعنى: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل،

فيجتمع الطعام هكذا ويتركب، ويؤكل الأقدم فالأقدم فإذا جاءت السنون الجدبة تقوت الناس الأقدم فالأقدم من ذلك المدخر، وادخروا أيضا الشيء الذي يصاب في أعوام الجدب على قلته، وحملت الأعوام بعضها على بعض حتى يتخلص الناس"،[54]هذا مع وجوب " مُرَاعَاةِ الْقَصْدِ وَالِاكْتِفَاءِ بِمَا يَسُدُّ حَاجَةَ الْجُوعِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَقْنَعُونَ فِي سِنِيِّ الْخِصْبِ وَالرَّخَاءِ بِالْقَلِيلِ."([55])

إن الاستثناء الذي ختمت به الآية الكريمة ضمن هذا التركيب كان مقصدًا حصيفًا إلى مراعاة أحوال الناس ليس في المقبل فقط، بل كذلك في الحاضر، ولا يعني الانشغالُ بتدبير أمور المستقبل وما ينتظر البلاد والعباد إهمالَ حاجات الناس الآنية الذين هم العامل الأساس في تنفيذ خطة الإنقاذ تلك وإنجاحها، وإلا لعاش الناس في العجف قبل أن تحل سنونه، وتلك براعة التخطيط من هذا النبي الكريم التي أوتيها من ربه جل وعلا، ولم يحدث أن لاقت اعتراضًا من الملك أو من النافذين في دولته. بل قد نالت استحسانًا جعل الملك يعهد إلى نبي الله بخزائن الأرض. جاء في تفسير الثعالبي: " روي أَنَّ يوسُفَ عليه السلام لَمَّا خَرَجَ وَوَصَفَ هذا الترتيبَ للمَلِكِ، وأعجبه أمره، قال له المَلِكُ: قَدْ أَسْنَدتُّ إِليك تولّيَ هذا الأمْرِ في الأَطْعِمَةِ هذه السنينَ المُقْبِلَة، فكان هذا أَوَّلَ ما وُلِّي يوسف "([56])

التراكيب المعبرة عن المرحلة الثانية:

تلا حديث نبي الله يوسف عليه السلام عن مرحلة الاستعداد من خطته، بيانه عن مرحلة المواجهة لتلك التحديات التي تجابه الملك ودولته، حيث العجف الذي سيضرب الأرجاء؛ ليقضي على كل شيء. ونستطيع أن نحدد في كلام نبي الله عليه السلام عن هذه المرحلة تركيبين متصلين على النمط الفعلي: الأول: يُبين المَعْلَم الرئيس لهذه المرحلة وهو دخول السنين العجاف "ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ"، والثاني: يُبين أثر ذلك على مدخرات الدولة مما

خُزِّن لهذه السني. "يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ "، وقد كان حرف العطف (ثُمَّ) الذي تصدر هذه الآية معبرًا في موقعه عن الفترة بين بداية كل مرحلة من مراحلة الخطة اليوسفية.

أولا: التركيب الفعلي الأول:

حُدِّدَ في هذا التركيب الفعلي" ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ "ـ نوع الفعل فجاء مضارعًا (يَأْتِي)، وأُخِّرَ الفاعل (سَبْعٌ) ليفسح مكانا للجار والمجرور وما أضيف إليه (مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) المتعلق بالفعل، وجاءت صيغة المبالغة (شِدَادٌ) صفة مفردة لهذا الفاعل.

وفي غير النظم القرآني يمكن القول إن البَوْن الزمني شاسعٌ بين زمن التكلم حين أُخبر الملك بتأويل نبي الله وهو ذاته بداية مرحلة الاستعداد للزراعة والادخار، وبين حلول تلك السبع الشداد؛ الأمر الذي يُوجب أن يُسبق الفعل بما يدل على المستقبل البعيد خاصة بالحرف (سَوْفَ).([57]) لكنَّ العلة هنا في مجيء التركيب خُلوًا من هذا الحرف مَرَدُّهُ إلى أن أداة الربط بينه وبين التركيب السابق عليه كانت أداة العطف (ثُمَّ) وهي بطبيعتها دالة على الترتيب والتراخي مما يفيد الحدوث في المستقبل هذا بالإضافة إلى أن الجار والمجرور وما أضيف إليه (مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) الذي توسط بين ركني التركيب جاء ليفيد ذلك أيضًا. ناهيك عن أن مجيء الفعل على هذا النحو هو إشعار بدنو تلك المرحلة وكأنها في المستقبل القريب وليس البعيد مما يستلزم ترك الدعة والفتور وبدء العمل بتنفيذ الخطة اليوسفية على الفور.

أمَّا تأخير الفاعل عن فعله فربَّما لأنه يقوي من فكرة أن هذه السنين السبع هي آتية لا محالة وإن تأخرت؛ ومن ثمَّ فلابد من الاستعداد الجيد لذلك، فضلا عن أنه في إبعادها قليلا عن الفعل إشاعة لروح الأمل والسعي والعمل

في الإنجاز بعيدًا عن الإحباط، والتذكير بما ينتظر الجميع من سنوات العجف والشدة التي أثارت الذعر وهي بعد لمَّا تقع بل مجرد تأويل لرؤيا.

وخُتِمَ التركيب بالوصف المشتق(شِدَادٌ)، وهي جمع لصيغة المبالغة (شديد)؛ " لأنها تكون شديدة على الناس، إذ يكون الناس فيها في شدة تضطرهم لإخراج كل ما ادخروا، ليدفعوا ضرها، ويأكل الناس فيها ما قدموه من قبل لها، وهيأوه لدفع شدتها." ([58])

ثانيًا: التركيب الفعلي الثاني:

يأتي هذا التركيب "يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ"؛ ليرسم صورة أخرى لما ينتظر دولة هذا الملك من مصاعب تضاف إلى ما جاء في الصورة الأولي التي عبر عنها التركيب الأول، وإذا كانت الصورة الأولي قد عبرت عن حجم هذه المصاعب على سبيل العموم بالصفة (شِدَادٌ) لعدد ليس بقليل من أيام الناس (سبع سنوات) فإن الصورة الحركية التي عبر عنها التركيب الثاني ـ وقد تلتها مباشرة ـ قدمت للمتلقين لتأويل هذه الرؤيا تصورًا لا محالة واقع لكم وكيف ما ينتظر هذه المملكة من ضنك المعيشة والجدوب القحطة لن يتم تداركها مالم تصطبر وتأخذ بما خطة يوسف الصديق عليه السلام.

بدأ التركيب بالفعل المضارع المسند إلى نون النسوة، ولما كانت دلالة المضارع التجدد والاستمرار وكذا استحضار الصورة في الذهن كما سبق أن قال الشوكاني، وإذا كان ذلك لمَّا يقع بعد لأنه تأويل لرؤيا ستقع أحداثها فيما بعد زمن التكلم دون أن يسبق الفعل بما يدل على المستقبل، فإن هدف المتكلم أن يضع المتلقين في بؤرة الحدث الذي سيقع كأنه ماثل أمامهم وإشعارهم بعظم ماهم مُقدِمُونَ عليه.

أما إسناد الفعل إلى نون النسوة التي تحيل إلى عنصر إشاري سابق هو(سَبْعٌ شِدَادٌ)، فقد اختلف المفسرون عند وقوفهم على هذا التركيب: فمنهم من اكتفي ببيان المقصود مثل الماوردي حين قال: "يعني تأكلون فيهن ما ادخرتموه لهن."([59])، ومِثْلُ الثعلبي الذي استشهد فيما قاله بكلام العرب: " يؤكل فيهنّ ما أعددتم لهنّ من الطعام في السنين الخصبة، وهذا كقول القائل:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم

والنهار لا يسهو والليل لا ينام، وإنّما يسهى في النهار وينام في الليل."([60])

ومنهم من صرح بأن التركيب من المجاز العقلي كالقرطبي حيث قال: (يَأْكُلْنَ) مَجَازٌ، وَالْمَعْنَى يَأْكُلُ أَهْلُهُنَّ. وذكر الشاهد الذي أورده الثعلبي وتعليقه عليه.[61]

غير أن الخازن وابن عاشور رأيا أن المقصود بالأكل هنا هو الإفناء، دون أن يصرح الأول بأن التركيب مجازي، وذلك ما رآه الثاني وعلَّله بقوله: "وَإِسْنَادُهُ بِهَذَا الْإِطْلَاقِ إِلَى السِّنِينَ إِسْنَادُ مَجَازٍ عَقْلِيٍّ، لِأَنَّهُنَّ زَمَنُ وُقُوعِ الْفَنَاءِ."([62])وممن علل لهذا الإسناد في هذا التركيب تعليلا آخر ــ الشيخ محمد أبو زهرة حيث قال: "ووصفت السنون بأنها تأكل مع أن الأصل هم الذين يأكلون؛ لأن هذه السنين تكون سنين غير منتجة، فكأنها هي التي تأكل."[63].

غير أن القاسمي في تفسيره رفض القول بالمجاز في هذا التركيب، وهذا الرفض لم أجده فيما اعتمدت عليه من مراجع إلا عنده، معللا جواز أن يكون الإسناد من باب المشاكلة، يقول: " نسب الأكل إلى السنين، كما رأى في الواقعة البقرات يأكلن؛ حتى يحصل التطابق بين المعبر وهو المرئيّ في المنام، والمعبر به، وهو تأويله. ولا يتعين المجاز العقليّ– أي يؤكل فيها– كما في: (نهاره صائم) لجواز أن يكون مشاكلة حينئذ."[64]

ولا تعارض بين هذه الأقوال في أكثرها، ويمكن الجمع بينها بالقول: إن إسناد الأكل إلى السنين من المجاز العقلي الذي عرفته لغة العرب؛ لأن زمن الأكل واقع فيهن، وفي هذا الأكل إفناء لكل ما أُدُّخر، ولا جديد من الإنتاج يعوض ذلك حيث تلك السبعُ جدبٌ وقحطٌ.

ويأتي المفعول به اسما موصولا لغير العاقل (ما) تَبِعَتُهُ جملة الصلة ذات الفعل الماضي (قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ)، وقد جاء الاسم الموصول وجملة الصلة بفعلها الماضي المسند إلي ضمير الجمع والجار والمجرور المتعلق بالفعل الماضي لتعبر مجتمعةً عن المنتج الذي عمل العاملون على إنتاجه ثم توفيره من استهلاكهم ثم تخزينه بالكيفية التي أرشد إليها نبي الله عليه السلام لعبور تلك السنوات العجاف بأمن وسلام. وفي اختيار الفعل الماضي (قَدَّمْتُمْ) ما يوحي بأخذ الحيطة والحذر وكأنَّ القائمين على الأمر في دولة الملك يبادرون فيقدمون لتلك السني العجاف ما خُزن تجنبًا لمخاطرها التي ـ لامحالة ـ فيها هلاك الحياة والأحياء،وإلهاءً لها من أن تلحقهم بأذاها.

ويتوسع التركيب قليلا ليفسح المجال لأداة الاستثناء وما بعدها، ليحد هذا التوسع من كَمْ المخزون الذي ستلتهمه تلك السنون، وليعطي بريقًا من الأمل في إبقاء القليل مما ادخر للبذر في المستقبل، لأن في استبقاء البذر تحصين الأقوات،([65]) ويُعدُّ هذا القول مؤشرًا على انفراج الأزمة بسلام.

والملاحظ في خطاب نبي الله عليه السلام في الآيتين اللتين عبرتا عن مرحلتين أو جانبين من الخطة التي رسمها لإنقاذ البلاد ـ وهي ذاتها تأويله لرؤيا الملك ـ أن الكلام كان موجها بضمير الجمع للمخاطبين: " قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ (48)".ويمكن إرجاع ذلك إلى مراعاة أحوال المخاطبين، فعندما طلب الساقي تأويل الرؤيا قال

لنبي الله: "يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا"، أوأن الخطاب موجهُ للملك وكان ذلك بضمير الجمع تعظيما له، وهنا تكون الضمائر عناصر إحالية إلي عنصر إشاري سابق هو(الْمَلِكُ) في أول الآية التي تحدثت عن الرؤيا. والذي أرجحه أن هذا الخطاب مُوجهٌ لجميع النافذين في الدولة بما فيهم الملك، إذ المسؤولية إذاك جماعية، توجب على جميع الفئات التعاضد والتكاتف لعبور هذه المحنة؛ وهنا تكون الضمائر عناصر إحالِيَّة إلي عنصرين إشاريين سابقين هما (الْمَلِكُ) و(الْمَلَأُ) معًا اللذان ذُكرَا في مفتتح الآيات.

التراكيب المعبرة عن المرحلة الثالثة:

جاءت التراكيب المعبرة عن المرحلة الثالثة والأخيرة التي ختم بها نبي الله تأويله لرؤيا الملك في قوله تعالى: " ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49)"إذ تضمنت الآية ثلاثة تراكيب فعلية: "يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ"، "يُغَاثُ النَّاسُ"، "يَعْصِرُونَ". وقد ارتبطت هذه التراكيب بما قبلها بحرف العطف (ثُمَّ) مثل التركيب السابق. وهو تعبير عن فترة الانتقال في أحوال البلاد من السبع العجاف إلى مجيء عام الغوث حيث ينعم الناس فيه بالرخاء، وتعود الحياة إلى سابق عهدها.

التركيب الفعلي الأول:

أما عن هذا التركيب فهو ذاته الذي ورد في التركيب الأول المعبر عن المرحلة الثانية إلا أن الفاعل هنا هو كلمة (عَامٌ)، وقد وقف بعض العلماء عند الفرق بين العام والسنة، وكلاهما ذكرا في التراكيب التي نحن بصددها. حيث فرق العلامة أبو هلال العسكري في كتابه (الفروق اللغوية) بين اللفظين على أن الْعَام أَيَّام وَالسّنة جمع شهور، ويقال عام الفيل، وليس سنة الفيل لأن العام يفيد كونه وقتًا لشيء والسنة ليست كذلك. وانتهى إلى أَنَّ الْعَام هُوَ السّنة وَالسّنة هِيَ الْعَام وَإِن اقْتضى كل وَاحِد مِنْهُمَا مَا لَا يَقْتَضِيهِ الآخر مِمَّا ذُكِرَ.([66])

ورأى السمين الحلبي في قوله تعالى: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ(14)" العنكبوت. نكتة لطيفة وهو أَنْ غايرَ بين تمييزَيْ العددَيْن فقال في الأول: (سَنَة) وفي الثاني: (عاماً) لئلا يَثْقُلَ اللفظُ. ثم إنه خَصَّ لفظَ العامِ بالخمسين إيذاناً بأَنَّ نبيَّ اللَّهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا استراح منهم بقيَ في زمنٍ حسنٍ، والعربُ تُعَبِّرُ عن الخِصْبِ بالعام، وعن الجَدْبِ بالسَّنَة.([67])

وقال بالرأي الأخير الفيروزآبادى: "والعام: الحَوْل لعَوْم الشمس في بروجها، والجمع: أَعوام. وسِنُون عُوّم توكيد قال تعالى:{عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ الناس}قيل يعبّر عن الجدب بالسنة، وعمّا فيه رخاء بالعام."[68]

ويري صاحب تفسير المنار: أن العام والحول يطلقان عَلَى صَيْفَةٍ وَشِتْوَةٍ كَامِلَتَيْنِ، وَأَمَّا السَّنَةُ فَهِيَ تَبْتَدِئُ مِنْ أَيِّ يَوْمٍ عَدَدْتَهُ مِنَ الْعَامِ إِلَى مِثْلِهِ.([69])

لكن ابن سيدة في كتابه (المخصص) ساق في نعوت السنين المجدبة أمثلة كثيرة من كلام العرب أُستعمل فيها لفظ السنة والعام تعبيرًا عن الجدب والمحل، ومنها: عَام أرمل فِي قلَّة الْمَطَر وعام أبقع – بقع فِيهِ الْمَطَر فِي مَوَاضِع ....، قَالَ وَالسّنة الشَّهْبَاء – الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مطر ثمَّ الْبَيْضَاء ثمَّ الْحَمْرَاء ... وَيُقَال سنة غبراءوقتماء وكهباء ... وعَام أخرج دون الخصب... وَقَالَ سنُون حرامس ـ شَدَّاد مُجْدِبَة واحدتها حرمس، يُقَال أرمد الْقَوْم – هَلَكت ماشيتهم وَبِه سمي عَام الرَّمَادَة بالجدب الَّذِي كَانَ بِأَرْض الْعَرَب أَيَّام عمر وَقيل سمي الرَّمَادَة لأَنهم لما أجدبوا صَارَت ألوانهم كلون الرماد.([70])

ويسوق في موضع آخر استعمالات جاء فيها لفظ العام تعبيرًا عن الخصب: " إِذا كَانَ عامٌ خصيبٌ مَشْهُور بالكلأ والكمأة وَالْجَرَاد سمي عَام المَاء ... وَيُقَال أَتَيْتُك عَام الهدملة والفطحل ـ يَعْنِي زمن الخصب والريف .... وَيُقَال كَانَ هَذَا فِي عَام الفتق – إِذا كَانَ مَشْهُورا بِالْخصْبِ ... قيل سمي الفتق لتفتق بطُون

الإبل بالشحم يُقَال أفتق النَّاس ـ إذا أعشبوا وأسمنوا .... عامٌ غيداق والغيداق ـ الْكثير الْوَاسِع من كل شَيْء" ([71])

من هنا يمكن القول إن لفظ (عَام) ليس مقيدًا في الاستعمالبمعاني الخصب والنماء، كما أن لفظ (سَنَة) ليس مقصورًا في الاستعمال علي معاني الجدب والقحط، بل إنَّ لفظ (السنة) في القرآن جاء تعبيرًا عن الزمن دون أن يرتبط ذلك بجدب أو خصب، وكذا لفظ (عَام). قال تعالي: " أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(259)" البقرة. وقال سبحانه وتعالي: "وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25)" الكهف. وعليه فإن السياق هو المسؤول عن تحديد المعنى، خاصة إذا اتبع اللفظ بما يؤكد على المعاني التي تصاحبه.

التركيب الفعلي الثاني:

لم يكن التركيب الثاني (يُغَاثُ النَّاسُ) منفصلا وظيفيا عن التركيب الأول (يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ)، إذ جاء تابعًا للفاعل (عَام)، وقد توسط بينها الجار والمجرور (فِيهِ) الذي قام بالربط بين التركيبين. جاء هذا التركيب ليكشف للمخاطب عن سمة من سمات هذا العام، تزيل شيئا من الخفاء والتعمية الذي أحاط به كونه لفظًا جديدًا في مكونات تراكيب التأويل جاء في ثوب النكرة. وأرى أن المغايرة هنا من نبي الله بذكر(عَام) بدلا من (سَنَة) التي ألفها المخاطب مقرونة بالتعب والإجهاد في المرحلة الأولي، وبالجدب والقحط في المرحلة الثانية ـ كانت في موضعها: أولا: لئلا يَثْقُلَ اللفظُ، كما سبق أن علل السمين الحلبي. وثانيًا: أن يلبي تطلع المخاطبـالمنتظر لما يقول به نبي الله من

تأويل ـ في ألفاظ أخرى تحمل معان تتشح بالتفاؤل وتَبَدُّدِ سنوات الدأب والشدة؛ فكان لفظ (عَام) الذي لحقه أحد التوابع.

وللتأكيد على أن جملة التابعِ الصفةِ (يُغَاثُ النَّاسُ) وما تفيده من انكشاف الأزمة وذهاب الغمة وتبدُّد سحب السنوات السبع وما سبقها ـ أمر واقع في هذا العام؛ تقدَّمَ الجار والمجرور(فِيهِ) ليتصدر هذا التركيب. وليكون الضمير المتصل بحرف الجر وسيلة الربط التركيبي والدلالي بين التركيبين.

وكان لصيغة المضارعة التي جاء عليها الفعل (يُغَاثُ) دورها في التركيب إذ عبَّرت عن الاستمرار والتجدد اللذين تتطلبهما إزالة آثار العجف والقحط الذي أصاب الحياة والأحياء، هذا إلى جانب استحضار الصورة في ذهن المخاطبين.

أما عن معاني هذا الفعل في ذلكم السياق فقد أفاض فيها السادة المفسرون وقد أفاد بعضهم من بعض، ولعل من أجمعها ما جاء في تفسير المنار الذي أبان عن تلك المعاني بقوله: " أي يغيثهم فِيهِ يُغِيثُهُمُ اللهُ ـ تَعَالَى ـ مِنَ الشِّدَّةِ أَتَمَّ الْإِغَاثَةِ وَأَوْسَعَهَا، وَهِيَ تَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْمَعُونَةِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، يُقَالُ: غَاثَهُ يَغُوثُهُ وَغَوَاثًا (بِالْفَتْحِ) وَأَغَاثَهُ إِغَاثَةً إِذَا أَعَانَهُ وَنَجَّاهُ، وَغَوَّثَ الرَّجُلُ، قَالَ: (وَاغَوْثَاهُ)، وَاسْتَغَاثَ رَبَّهُ: اسْتَنْصَرَهُ وَسَأَلَهُ الْغَوْثَ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْغَيْثِ وَهُوَ الْمَطَرُ، إِذْ يُقَالُ: غَاثَ اللهُ الْبِلَادَ غَيْثًا إِذَا أَنْزَلَ فِيهَا الْمَطَرَ، وَالْأَوَّلُ أَعَمُّ وَهُوَ الْمُتَبَادَرُ هُنَا، وَلَا يُقَالُ إِنَّ الثَّانِيَ لَا يَصِحُّ، لِأَنَّ خِصْبَ مِصْرَ يَكُونُ بِفَيَضَانِ النِّيلِ لَا بِالْمَطَرِ، فَإِنَّ فَيَضَانَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنَ الْمَطَرِ الَّذِي يَمُدُّهُ فِي مَجَارِيهِ مِنْ بِلَادِ السُّودَانِ، فَاعْتِرَاضُ بَعْضِ الْمُسْتَشْرِقِينَ مِنَ الْإِفْرِنْجِ وَزَعْمُهُ أَنَّ الْكَلِمَةَ مِنَ الْغَيْثِ وَأَنَّهَا غَيْرُ جَائِزَةٍ، جَهْلٌ زَيَّنَهُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ تَلَذُّذًا بِالِاعْتِرَاضِ عَلَى لُغَةِ الْقُرْآنِ."([72])

أما عن المغاثين وهم نائب الفاعل في التركيب فجاء اسما ظاهرا دالا على العموم (النَّاسُ)، وهذا تحول في الخطاب اليوسفي من حال المخاطب الحاضر

إلى حال الغيبة. فقد كانت التراكيب التي عُنِيَت بتأويل الرؤيا موجهة للمعنين برؤيا الملك والقائمين على رسم السياسات العامة في البلاد وعلى رأسهم ملكهم: "قَالَ تَزْرَعُونَسَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْفَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ(47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ(48)"، وهؤلاء هم الذين أصيبوا بالحيرة وخيبة الأمل إذ عجزوا عن التأويل، وهم الذين اشرأبت أعناقهم، وتفتحت آذانهم لما سرده عليهم نبي الله.

فَلِمَ عَدَلَ عنهم الخطاب في المرحلة الثالثة التي تحمل البشريات؟

أرى ـ والله أعلم ـ أن خطاب نبي الله في المرحلتين السابقتين كما موجهًا لأولي الأمر القائمين على أمور الزراعة والتخزين والتموين، أما غيرهم ـ وإن كانوا ذوي صلة بهذه الأمور ـ فإنهم قد لا يقعون ضمن المعنيين بتنفيذ ما يصدر من قرارات بهذا الشأن، لكن آثار السنوات العجاف تطال الجميع بل وحتى سكان البادية الذين قد يقعون على أطراف البلاد (كما حدث مع أخوة يوسف)، وكذا عام الخصب والنماء أو الغوث آثاره تعم الجميع، لذا كان لفظ (النَاس) تعبيرًا عمَّنْ ظلتهم سحائب الفضل والنماء دقيقًا في مكانه وذا دلالة في التركيب.

التركيب الفعلي الثالث:

شكل التركيب الفعلي الثالث (وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) الملمح الثاني من ملامح ذلك العام الذي سيلي السنوات السبع العجاف إذ انكشاف سنى القحط، وعودة الحياة في البلاد إلى طبيعتها.

وفي عطف الجملة على سابقتها بحرف (الواو) دلالة على عدم تأخر ظهور الآثار المترتبة على ما نال الناس من الغوث وما عمهم من الرخاء، قال العكبري: " قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَعْصِرُونَ): يُقْرَأُ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ وَالْفَتْحِ، وَالْمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ؛ أَيْ يَعْصِرُونَ الْعِنَبَ لِكَثْرَةِ الْخِصْبِ."[73] وقال صاحب المنار: "(وَفِيهِ

يَعْصِرُونَ) مَا شَأْنُهُ أَنْ يُعْصَرَ مِنَ الْأَدْهَانِ الَّتِي يَأْتَدِمُونَ بِهَا وَيَسْتَصْبِحُونَ كَالزَّيْتِ مِنَ الزَّيْتُونِ وَالْقُرْطُمِ وَغَيْرِهِ، وَالشَّيْرَجِمِنَ السِّمْسِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَالْأَشْرِبَةِ مِنَ الْقَصَبِ وَالنَّخِيلِ وَالْعِنَبِ."[74]وإنّما أراد المفسرون من ذكر بعض الأعناب والثمار والحبوب كثرة النعم والخير.[75]

وهناك من قرأ (يُعْصَرونَ) أراد يُمْطَرُونَ، من قوله: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ مَاءً ثَخاجاً).([76]) وزاد ابن الجوزي معان أخرى: يحتلبون، وينجون: وهو من العَصَر والعَصَر: النجاء، ويصيبون ما يحبون، ويعطون ويفضِلون لِسَعَةِ عيشهم.([77])

وقد تصدر الجار والمجرور (فِيهِ) هذا التركيب مثل التركيب السابق تأكيدًا أن مظاهر الخصب والنماء وذهاب القحط والعجف واقعة في هذا العام. وجاء الفعل مضارعًا وللمضارع دلالاته التي سبق الإشارة إليها ولعل من أخصها هنا استحضار الصورة في الذهن تأكيدًا على عودة الحياة إلى ما كانت عليه، وكان الإسناد إلى واو الجماعة التي تحيل إلى العنصر الإشاري وهو لفظ (النَّاس) الذي ورد في التركيب المعطوف عليه ـ دلالةً على أن خير هذا العام قد أصاب الجميع فلم يُحرم منه أحد.

وقد أوحي إلى نبي الله أن يزف البشريات إلى مستفتيه، بمجيء عام الخصب والنماء بشيء من هذا التفصيل والتخصيص بعد أن تَأَوَّلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْبَقَرَاتِ السِّمَانَ وَالسُّنْبُلَاتِ الْخُضْرَ بسين مُخْصِبَةٍ، وَالْعِجَافَ وَالْيَابِسَاتِ بِسِنِينَ مُجْدِبَةٍ. وهذا خبر من يوسف (عليه السلام) عمّا لم يكن في رؤيا الملك، ولكنّه من علم الغيب الذي آتاه الله عزّ وجلّ، كما قال قتادة: زاده الله علم سنةٍ لم يسألوهُ عنها.فإن قِيل: معلومٌ أنّ السنينَ المجدبةَ إذا انتهتْ كانَ اِنتهاؤها بالخصبِ، وإلاَلَمْ توصفْ بالانتهاءِ، فَلِمَ قُلتَ: إنّ علمَ ذلكَ من جهةِ الوحى؟ قلتُ: ذلكَ معلومٌ علماً مطلقاً لا مُفصلا. وقولُهُ (فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ) تفصيلٌ لحالِ العامِ، وذلكَ لا يُعلمُ إلا بالوحي.([78])

وختامًا فقد كانت هذه التراكيب التي عبرت عن رؤيا الملك مجسدةً للمتلقي عناصر هذه الرؤيا وتفاعلاتها المختلفة كأنهم يرونها رُؤْيَ العين. كما جاءت التراكيب المعبرة عن تأويل نبي الله يوسفلهذه الرؤيا عبر مراحلها الثلاث راسمة خط عمل لتجاوز الأزمة بأسلوب ينمازبالتسلسل مع الدقة والوضوح.

ولم يكن أمر الرؤيا و كذا التأويل الذي جرى لها على لسان نبي الله يوسف عليه السلام في مراحله الثلاث بغريبٍ عن المستفتين، إذ لم تكن عناصرهما (الرؤيا والتأويل) إلا من عوالم البيئة المصرية التي جرى في جنباتها الشطر الأكبر من أحداث القصة الكاملة لبني الله يوسف عليه السلام.

وصلِ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمدًا عبدك ورسولك، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الهوامش:

---

(1)انظر في ذلك: د. أحمد نوفل: سورة يوسف دراسة تحليلية، دار الفرقان، عمَّان، ط1(1409هـ ـ 1989م) ص 71. و د. أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، دار الشروق، القاهرة(2001م) ص 41.

(2) د. سعيد بحيري: ظواهر تركيبية في مقابسات أبي حيان التوحيدي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة (1995م)، ص98.

(3) القزويني (جلال الدين القزويني ت739): الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط3(1413هـ/1993م) ص65ـ71.

(4) الطبري (محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، ت 310هـ): جامع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط1(1422هـ ـ2001 م)177/13.

(5) أبو حيان (أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي،ت 745هـ): البحر المحيط في التفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت(1420هـ) 280/6.

(6) ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت 542هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1422هـ) 248/3.

(7) أبو الفرج ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ت 597هـ): زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت،ط1(1422 هـ) 442/2.

(8) الخطيب الشربيني (شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي، ت 977هـ): السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة (1285هـ)111/2.

(9)الشوكاني (محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، ت 1250هـ): فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق/بيروت، ط1 (1414هـ) 37/3.

(10) محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (1990م) 261/12.

(11) محمد مصطفى المراغي: تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده ، القاهرة، ط1 (1365 هـ - 1946م) 154/12.

(12) انظر: البغوي(أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، ت 510هـ): معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط1(1420هـ).494/2. و الزمخشري جار الله (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، ت. 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3(1407 هـ)473/2. وأبو الفرج ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 442/2. وابن أبي حاتم (أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم ، ت327هـ): تفسير القرآن العظيم،

تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط 3(1419هـ) 2150/7.

(13) الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، ت 606هـ)، مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3(1420هـ) 463/18.

(14) ابن عادل (أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، ت 775هـ): اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1419 هـ -1998م) 11/ 112. والخطيب الشربيني: السراج المنير، 2/ 111.

(15) الزجاج (إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، ت 311هـ): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، ط1 (1408 هـ - 1988م) 112/3.

(16) انظر: الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس (1984هـ) 12/ 280. وصديق القِنَّوجي (أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، ت 1307هـ): فتح البيان في مقاصد القرآن، تحقيق: عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا/ بَيروت (1412 هـ ـ 1992 م) 6/ 344. و محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 12/ 262.

(17)الرازي: مفاتيح الغيب، 463/18.

(18) انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 473/2.

(19) انظر: البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 3/ 165. وأبو حيان: البحر المحيط في التفسير،6/ 280. وابن عادل: اللباب في علوم الكتاب، 11/ 113. والنيسابوري (نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، ت 850هـ): غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت (1416هـ).4/ 92.

(20) انظر: عبد القاهر الجرجاني (أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي ،ت 471هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة ـ دار المدني بجدة، ط3(1413هـ – 1992م)ص 673.

(21) انظر: الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، 473/2.

(22) انظر: البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، ت 685هـ): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي/بيروت، ط1(1418 هـ) 3/ 165.

(23) الماتريدي (محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، ت 333هـ): تأويلات أهل السنة: تفسير الماتريدي، تحقيق: د.مجديباسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1426هـ ـ 2005م) 6/ 246.

(24) الخطيب الشربيني: السراج المنير، 2/ 111.

(25) البغوي: معالم التنزيل، 2/ 494.

(26) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، 6/ 246.

(27) الزمخشري: الكشاف، 473/2. وأبو حيان: البحر المحيط، 6/ 281.

(28)انظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، 112/3. والخطيب الشربيني: السراج المنير، 2/ 111. والزمخشري: الكشاف، 2/ 474. و ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، 2151/7. وأبو حيان: البحر المحيط، 6/ 281. و السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، ت. 373هـ): بحر العلوم، تحقيق: على محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود وزكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1413هـ ـ 1993م) 2/ 195. و الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، ت 427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط1 (1422 هـ – 2002 م) 5/ 226. ومحمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي ـ الخواطر، مطابع أخبار اليوم (د.ت)، 11/ 6968.

(29) انظر: الزجاج :معاني القرآن وإعرابه، 112/3. والشوكاني : فتح القدير، 37/3.

(30) انظر التحليل الرائع لشخصية الساقي كما بدت في سورة يوسف في: د. أحمد نوفل: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص 220.

(31) د. أحمد نوفل: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص408 ـ 409.

(32) محمد رشيد رضا: تفسير المنار ،12/ 263.

(33) د. أحمد نوفل: سورة يوسف دراسة تحليلية، ص411.

(34) انظر: الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، ت. 450هـ): تفسير الماوردي ـ النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت) 3/ 44.

(35) انظر: البغوي: إحياء التراث، 2/ 495. والزمخشري: الكشاف، 2/ 476، والرازي: مفاتيح الغيب، 18/ 465، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 9/ 203، والبيضاوي: أنوار التنزيل، 3/ 166.

(36) الزمخشري: الكشاف، 2/ 476.

(37) انظر: الرازي: مفاتيح الغيب، 18/ 465. والبيضاوي: أنوار التنزيل، 3/ 166. و النسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي(ت710هـ): تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1(1419هـ ـ 1998م) 115/2. وأبو حيان: البحر المحيط، 285/6. النيسابوري: 93/4. ومحمد رشيد رضا: تفسير المنار، 263/12.

(38) الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، 125/16.

(39) الزجاج: معاني القرآن، 114/3.

(40) انظر: الثعالبي (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، ت 875هـ): الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1 (1418هـ) 331/3.

(41) الماوردي: النكت والعيون، 3/ 44.

(42)السمعاني (أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي، ت 489هـ): تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، دار الوطن، الرياض، ط1(1418هـ- 1997م)3/ 36.

(43)البغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، 2/ 495.

(44)الخازن (علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، ت. 741هـ): لباب التأويل في معاني التنزيل، تصحيح: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 (1415هـ) 532/2.

(45) الزمخشري: الكشاف، 2/ 476.

(46) ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، ت 542هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1(1422هـ) 250/3.

(47) أبو حيان: البحر المحيط، 285/6.

(48) ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير (2/ 443). وانظر القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، 203/9.

(49) الرازي: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، 18/ 465. وانظر: الشوكاني: فتح القدير، 38/3.

(50) البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 3/ 166.

(51) ابن عجيبة: (أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي، ت 1224هـ): البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة (1419هـ) 601/2.

(52) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 286/13.

(53)القشيري (عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ، ت 465هـ): لطائف الإشارات ـ تفسير القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ،ط3(د.ت) 188/2.

(54) ابن عطية: المحرر الوجيز، 3/ 250.

(55) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 12/ 263.

(56) الثعالبي: الجواهر الحسان، 3/ 331.

(57)انظر في ذلك: د. مجدي مصطفى ياقوت: السين وسوف في القرآن الكريم، في: مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، الدوحة، ع (186)، (ديسمبر 2015م) ص195 وما بعدها.

(58) محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير، دار الفكر العربي.(د.ت)، 7/ 3831.

(59) الماوردي: النكت والعيون، 3/ 44.

(60) الثعلبي (أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق، ت 427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط1 (1422 هـ - 2002 م) 227/5.

(61) القرطبي: أحكام القرآن، 204/9.

(62) انظر: الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل، 2/ 532، وابن عاشور: التحرير والتنوير، 287/12.

(63) محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير ، 3831/7.

(64) القاسمي(محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، ت1332هـ): محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت (1418هـ) 6/ 183.

(65) الشوكاني: فتح القدير، 39/3.

(66) انظر: أبو هلال العسكري: أبوهلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، ت 395هـ):الفروق اللغوية: حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة (د.ت) ص 271.

(67)انظر: السمين الحلبي (أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، ت 756هـ): الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق (د.ت)13/9.

(68) الفيروزآبادى (مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، ت 817هـ): بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة (1412 هـ - 1992 م)113/4.

(69) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 2/ 325.

(70) ابن سيده (أبو الحسن علي بن إسماعيل، ت 458هـ): المخصص، تحقيق: د. خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1(1417هـ 1996م) 107/3.

(71) المرجع السابق، 109/3.

(72) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، 12/ 264.

(73) انظر: العكبري (أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري، ت 616هـ): التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه(د.ت)، 2/ 734. وانظر: أبو جعفر النحاس(أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي، ت 338هـ): معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1 (1409هـ) 3/ 434. وانظر القراءات الأخرى للفعل (تعصرون) والمعاني التي تفيدها في: أبو حيان: البحر المحيط في التفسير، 6/ 286.

(74) محمد رشيد رضا: تفسير المنار،12/ 264. وانظر:النسفي: مدارك التنزيل وحقائق التأويل، 2/ 115.

(75) تفسير الثعلبي: الكشف والبيان، 5/ 228.

(76) الزجاج: معاني القرآن وإعرابهن 3/ 114.

(77) انظر: ابن الجوزي: زاد المسير في علم التفسير، 2/444ـ445.

(78) انظر: الثعلبي: الكشف والبيان،5/ 227. والزمخشري: الكشاف، 2/ 477. وأبو حيان: البحر المحيط، 6/ 286. ومحمد رشيد رضا: تفسير المنار، 12/ 264.